بين فن التاريخ وفن الحرب

٤ ـ خالد بن الوليـــد * في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمي
رئيس أركان الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »
خالد بن الوليد

الخطات الأولية :

والواضح من أخبار الرواة أن مناوشات طفيفة وقعت قبل أن يتسلم خالد بن الوليد قيادة الجيش للقضاء على أهل الردة فى بلاد نجد .

والظاهر أن الرواة لم يتفقوا على أخبار هذه المناوشات جرياً على عادتهم ، والروايات المنتهية إلى سيف بن عمر وهو الراوى الذى يستند اليه الطبرى فى ذكر الكثير من أخباره تبحث فى قتال عنيف وقع بين المسلمين وأهل الردة قبل أن يزحف خالد بجيشه الى طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة . أما الأخبار التى يرويها الواقدى والبلاذرى فتذكر قتالاً طفيفاً جرى فى ذى القصة أو البقعاء بين مقدمة المسلمين وعبس وذبيان انتهى بهزيمة المرتدين بعد أن رأوا أن كوكب (القسم الأكبر) جيش المسلمين وصل لنجدة المقدمة ، وأن قسما من هذا الجيش طاردهم الى ثنايا الموسجة ، ولما لم يلحق بهم عاد الى المعسكر .

ولم يتفق الرواة على هذا القتال أجرى قبل عودة جيش أسامة بن زيد أم بعد عودته من بلاد الشام .

ومن الأخبار ما تروى أن كبار الصحابة أشاروا على أبى بكر ألا يرسل جيش أسامة بعد أن وردت الأخبار بارتداد العرب ، إلا أن أبا بكر لم يقدم على تغيير ما أمره الرسول به فى حياته .

والذى اتفق عليه الرواة أن جيش أسامة لم يغب عن المدينة أكثر من شهرين ، وكان الجيش متجمعاً فى الجرف فى شمال المدينة لما توفى الرسول . ومع أن أكثر الرواة يزعم أن أخبار الارتداد فى الشرق وفى الشمال وفى الجنوب الشرقى وردت قبل حركة جيش أسامة — وذلك ما جعل كبار الصحابة يشيرون على الخليفة ببقاء الجيش ليعتز المسلمون به فى محاربتهم أهل الردة — إلا أن الواقع لا يؤيد ذلك ، إذ لا يعقل أن يصل نعى النبى الى بلاد عمان والبحرين فيرتد أهلها ويصل ذلك النعى الى المدينة وجيش أسامة قاعد لا يحرك ساكناً . وإذا كان الخليفة يريد أن ينفذ أوامر الرسول فلماذا يؤخر حركة هذا الجيش طول هذه المدة ؟ وتدل الأنباء على أن أول من أنبأ بالارتداد عامل مكة وأعقبه عامل الطائف بالخبر ، ثم ورد عمرو بن العاص الى المدينة بخبر ارتداد أهل عمان والبحرين ونجد ، وكان الرسول بعد حجة الوداع قد أوفده الى عمان ، فلما بلغه نعى النبى قفل راجعاً الى المدينة وأخبر بوضوح أن العرب ارتدت من دبا الى المدينة ، والمدة التى تصل فيها أخبار الوفاة الى عمان ليست قصيرة ، كما أن السفر من عمان الى المدينة أيضاً يتطلب عدة أيام ، لأن المسافة بين عمان والمدينة ١٢٥٠ ميلا (أعنى مسيرة أكثر من عشرين يوماً على الذلول)

ومن الواضح أن كبار الصحابة لم يرتأوا إبقاء جيش أسامة بمجرد رؤيتهم قبائل فزارة وغطفان يرتدون ، والأمر الذى لاشك فيه أن خبر امتناع بعض القبائل العربية القريبة من المدينة عن تأدية الزكاة وردت الى المدينة قبل حركة جيش أسامة .

وإذا صح ادعاء الرواة بأن خبر ارتداد العرب فى أقصى البلاد ورد الى أبى بكر فأطلعه على حرج الموقف قبل سفر جيش أسامة ، فيكون الخليفة قد جازف مجازفة خطيرة ، بإيفاده الجيش شمالا بينما كان الخطر يهدد المسلمين فى عقر دارهم .

ومن الرواة من يزعم أن أبا بكر شرع فى قتال أهل الردة بعد عودة جيش أسامة ، ومنهم من يدعى أن قتال ذى القصة والربذة جرى قبل عودة الجيش .

أما نحن فنميل الى الاعتقاد أن القتال وقع قبل عودة الجيش ، إذ لا يعقل أن تتواطأ غطفان على الهجوم على المدينة ، وتعلم بأن

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل .
« الرسالة »

جيش أسامة مرابط فى شمالها . بينما الروايات التى يستند اليها الواقدى والبلاذرى تدل على أن قوة المسلمين كانت ضعيفة فى ذلك القتال .

الشروع فى العصيان :

أول من شرع فى العصيان خارجة بن حصن الفزارى من رؤساء بنى فزارة ، إذ أنه أوقف جابى الزكاة فى طريقه إلى المدينة وأخذ منه مافى يده فرده على بنى فزارة ورجع الجابى إلى أبى بكر .

أما القبائل التى ثارت وتظاهرت بالعـــداء فهى : بنو أسد وغطفان والبعض من بطون طىء ، فاجتمع بنو أسد فى سميراء ، وعلى رأسهم طليحة بن خويلد ، واجتمعت فزارة فى جنوبى طيبة ، واجتمعت عبس وذبيان فى الربذة والتف حولهم جماعة من كنانة ، ولما كثر عددهم لم تحملهم البـلاد لأن المياه شحيحة والمرعى قليل فتفرقوا إلى فرقتين ، فأقامت فرقه بالأبرق بالقرب من الربذة والأخرى فى ذى القصة ، وأمد طليحة فرقة ذى القصة بقوة من بنى أسد . والداعى الى تفرقهم هو أن الوقت كان صيفاً ، لأن الرسول توفى فى شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة . وهذا التاريخ يوافق شهر حزيران سنة ٦٣٢ ميلادية . والمياه على ما نعلم تشح فى الصيف ، وكذلك المرعى تقل حينئذ . فبعثت غطفان وفداً الى المدينة ليعرض على أبى بكر رغبتها فى أن تقيم الصلاة وألا تأتى الزكاة ، وكان عيينة بن حصن الفزاوى وأقرع ابن حابس فى الوفد .

فلم يلب أبو بكر طلبهم برغم إشارة بعض الصحابة عليه بالتساهل معهم الى أن يعود جيش أسامة ، إلا أنه فى الوقت نفسه قدر خطورة الموقف لما عاد الوفد الى أهله . وكان للوفد على مايظهر مهمتان : عفو الزكاة ، والاطلاع على قوة المسلمين فى المدينة . وقد لاحظ أبو بكر ذلك ، إذ لم يعد الوفد حتى جمع الصحابة وأطلعهم على حرج الموقف وكلفهم بحراسة المدينة ليلاً ونهاراً . فأقام رجالا فى الأبراج لمراقبة الطرق الممتدة الى المدينة من جهة البادية ، ورتب قوة احتياطية فى المسجد لتكون على استعداد للنجدة عند الحاجة ، وحذر أهل المدينة بقوله « انكم لاتدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً وأدناهم منكم على بريد » يشير بذلك الى قرب المسافة بين المدينة والقبائل المتحفزة للهجوم .

وقد يعجب الانسان بصلابة أبى بكر فى رفضه طلب الوفد بعد اطلاعه على أخبار عماله لدى القبائل وسماعه حديث عمرو ابن العاص . وكانت جميعها تنبىء بارتداد العرب عامة أو خاصة ولا يوجد فى المدينة سوى نفر قليل وجيش أسامة بعيد عنها .

ونظراً الى ما ذكره الواقدى فى كتاب الردة أن أبا بكر لم يكتف بالتدابير التى اتخذها فى المدينة ، بل طلب من القبائل العربية كأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة أن تمده بالرجال فأسرعت الى نجدته . فأخذ الناس يتوافدون الى المدينة بسلاحهم ، وأرسلت جهينة أربعمائة راكب .

وإذا صدقنا رواية سيف بن عمر التى نقلها الطبرى ، ظهر لنا أن ظن أبى بكر كان فى محله ، إذ لم تمض ثلاثة أيام على عودة الوفد حتى كان المرتدون قد غزوا المدينة ليلا .

لابد أن الوفد بعد عودته أخبر القبائل المتحفزة للهجوم عن ضعف قوة المسلمين بالمدينة وشجعها على الهجوم وكانت من غطفان ، وهى عبس وذبيان وفزارة على ما نعلم .

المواقع التى جرى القتال فيها :

وردت أسماء السميراء والربذة وطيبة والأبرق وذى القصة عند البحث فى تجمع القبائل . ولا يوجد الآن من هذه الأسماء فى الخرائط الحالية الا السميراء . ولنا من الأخبار التى نستقيها من رواة العرب الأقدمين أن القبائل الساكنة فى شرق المدينة وعلى طرق الطرق الذاهبة الى العراق وخليج فارس هى بنو سليم وهى أقربها الى المدينة فى الشمال الشرق ، ثم يليها بنو كلاب الى شمالى بنى سليم ، ثم عبس وذبيان فى شرق حرة خيبر الى الشمال .

أما قبائل طىء فتسكن فى جبليها أجأ وسلمى ، وفى شرق بنى عبس وذبيان وفزارة من غطفان فى وسط وادى الرمة وعلى جانبيه . وتأتى بعدها قبائل بنى أسـد . وموقع سميراء على ما يظهر من الخريطة واقع الى شمالى وادى الرمة ، ويبدأ منه وادى السميراء الذى يصب فى الوادى فى جوار الحاجر .

الربذة :

يذكر ياقوت الحموى أن موقع الربذة على الطريق التى تصل موقع فيد بالمدينة . وفيد فى حى طىء وهى قرية من قرى جبل شمر واقعة الى شرق جبل سلمى على الطريق التى تصل الكوفة بالمدينة

ويمر بها طريق الحج ، وهي بعيدة عن المدينة مسافة ست مراحل . وتلتقي فيها عدة طرق من الجوف والعراق والمدينة وبريدة والرس .

والربذة على هذا الطريق ، وهي تبعد عن المدينة اربعة وعشرين فرسخاً ، وواقعة الى شمالي شرقها ، ولعل موقع حناكية الحالي هو موقع الربذة القديم او قريب منه ، لأن بُعده عن المدينة زهاء ثمانين ميلاً . والفرسخ العربي طوله اربعة كيلومترات ونصف كيلومتر أو أربعة كيلومترات . والذي يجعلنا نميل الى ذلك ان القوة لم تجتمع في الربذة بل في الابارق ، وكلمة ابارق اسم خاص لبعض المحلات تدل على أرض حجرية ورملية مختلطة .

وموقع الحناكية بالقرب من حدود حرة خيبر ، والحرة على ما نعلم ارض بركانية خامدة وفيها محلات يترا كم الماء فيها . ومادامت القبائل مجتمعة فيها فلا بد حينئذٍ من وجود الماء بها . والحناكية واقعة في بطن وادي الحمض .

ذو القصة أو البقعاء : والظاهر أن كلتيهما تدلان على موقع واحد واقع في شرقي المدينة وقريب منها ، وهو بلا شك على الطريق التي تمتد الى المدينة في غربي الربذة او في جنوبها ، وهو اما الشقرة او سابية .

والأخبار تدل على أن أبا بكر بعد أن هزم المرتدين في البقعاء طاردهم بخيله الى ثنايا العوسجة بالقرب من الركبة ، وهذا الموقع الاخير واد يصب في الرمة ، ولعله وادي الركب الذي ينبع من حرة خيبر ويجري شمالا في شرق وثنايا العوسجة في المحل الضيق الذي يتسلق فيه الطريق صاعداً الى رأس الوادي او ينزل منحدراً منه .

أما موقع طيبة الذي اجتمع فيه غطفان وفزارة فلم نعثر عليه في معجم البلدان ولعله في شرق الربذة أو في شماليه . أو انه موقع طابة في سفح جبل سلمى الجنوبي في شمالي السميراء وهو من ديار غوث من طيء .

مباغتة المدينة :

لم يهجم المرتدون بكل قوتهم لانهم أرادوا أن يكونوا خفافاً فتركوا قسماً منهم في ذي حسى بين ذي القصة والمدينة ليكون رداءً لهم ، واقتربوا ليلا من المدينة ولم يباغتوها لأن العيون اخبرت المسلمين بدنوهم ، فقاتلتهم الربايا الخارجية ، وأسرع ابو بكر من في المسجد فأجدا الربيئات وهزم الهاجمين ، ولم يكتف بذلك بل هاجمهم على الجمال التي تسقي الماء من الآبار لأسقاء مزارع المدينة ، الى أن نفرت الابل من الجلود المنفوخة التي دهدهها الفارون من أعلى الروابي ، فرجعت على أعقابها نافرة حتى دخلت المدينة .

والظاهر أن الهاجمين لم يكونوا في قوة كبيرة ، ولا سيما بعد أن تركوا قسماً منهم في الخلف . ويظهر أنهم من بني عبس وذبيان . أما فزارة فبقيت في ذي القصة . وهكذا انقسمت القوة التي أرادت أن تهاجم المدينة الى ثلاثة أقسام : قسم في ذي القصة وقسم في ذي حسى ، والقسم الثالث أغار على المدينة . أما قوة المسلمين فلا شك في أنها كانت ضعيفة ، ولعلها لم تزد على المائتين .

وتشجع المرتدون من فرار رجال المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا الى من بذي القصة بالخبر فلحقوا بهم .

يتبع

طه الهاشمي

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتب مدرسية

تطلب الكتب الآتية التي قررتها وزارة المعارف من اللجنة بشارع الكرداسي زقم ٩ وثمنها كالآتي :—

مليم		
١٠٠	مبادىء الكيمياء الجزء الأول	: للسنة الثالثة الثانوية
١٠٠	مبادىء الكيمياء الجزء الثاني	: للسنة الرابعة الثانوية
١٠٢	مبادىء الميكانيكا	: للسنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٥٠	المنتخب من أدب العرب الجزء الأول	: للسنة الثالثة الثانوية
٢٥٠	المنتخب من أدب العرب الجزء الثاني	: للسنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٢٠	المجمل في تاريخ الأدب العربي	: للسنة الثالثة الثانوية
١٠٠	المفصل في تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	للسنتين الرابعة
١٥٠	المفصل في تاريخ الأدب العربي الجزء الثاني	والخامسة الثانويتين
٢٠	كتاب الأخلاق	: للسنة الثالثة الثانوية
١٢٠	تاريخ القرن التاسع عشر	: للسنة الخامسة الثانوية